القصة الوجودية عند كافكا

ترجمة : أحمد عصام الدين

يحكى التاريخ الأدبى فيقول ان القصة القصيرةهى أقدم أشكال العمل الأدبى طرا ، بل لعلها أول ما عرف الانسان من وسيلة ينقل عن طريقهـا الى غيره ما يزجى به الوقت فى صحبة ممتعه يوم كان يجتمع الشمل حول نار يصطلى القوم بها ، يردون عنهم غائلة الشـتاء ، أو فى حمى شجرة ، يفيئون الى ظلها ، يدفع عنهم قيظ الصيف ، وهم يتجاذبون أطراف الحديث فى سمر شيق ، فيحكى هذا قصـة تنقل تجربة الحيـاة ، ويروى ذاك أخرى تضم بين جنبيها نادرة طريفة ٠

وقد جـرى التطور على القصـة القصيرة كمـا جرى على غيرها ممـا يضطرب فى الحيـاة ، فاذا هى فى دور من أدوار حياتهـا ، أداة يصطنعها الانسان من أجل رسم صورة من صور الحيـاة ، ينقل فى سياقها عقيدته التى يدين بها ، ومذهبه الذى يعتنقه ٠

وواحد من المذاهب التى تسربت الى العقيـدة الانسـانية على مدى واسـع ، مذهب الوجودية ، ذلك المذهب الذى يقول بالذاتيـة والذاتية وحدها ، اذ هى دون الذا تيوالعقلالمعول الوحيد فى عالم تبدو فيه الأشياء وقد خلت من كل معنى ، وبدا العقل سخفا أو ضر بأمن السخف ، وترتب على هذا نتيجة طبيعيـة ، أن تعين على الانسان وقد جرد ممـا كان له من معتقدات وتقاليد وعادات هى تكأته فى هذه الحيـاة الدنيـا ، تعين عليه أن يتخذ هو قراراته، وأن يجد حقائقه التى تسلبالانسان فى رأى كيركينارد سترته البشرية التى ألفهـا وألفته ما اقترن بالحيـاة ، تلك الحقائق التى تحطم القنـاع الذى ينظر المرء من خلال رحلة روحه المعـذبة فى « ليل اللاشىء البهيم » ٠

والوجودية بما اختلف من وجوهها ، وتبـاين من نظراتها ، تنعكس صورتها فى القصة القصيرة ، فكل قصـة قصيرة وضعها قصاص وجودى ترمز لجانب من المذهب ، وتعـالج القضية على نحو يطيب للنفس أن تخلد

فترة من الزمن ، فهو يأتيها عن طريق القصـــة ـ الشـــكل الوحيد من أشكال العمل الأدبى الذى يروق لها وتطمئن الى صحبته ٠

وتطل علينا عند هذه النقطة من حديثنا حقيقة لا مناص من ذكرها تلك أن القصة القصيرة الوجودية لا تنتهى أبدا النهاية التقليدية ، فهى ليست قصة قصيرة من الطراز الذى ألفه القارىء ، وانمـــا هى تشذ عن القـــاعدة التى درجت عليها هذه الصـــورة الادبية ، فهى ، أى القصة الوجودية ، «رقرقة سلوك» أو «خفقة غم» أو «سحابة سقام» أو « حطام علاقة » أو ما اليها ـ انها «رحلة تتم فى غير مكان» هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان القصـــة الوجودية من شأنها أن تبعث الالم فى النفس الانسانية ، لا لشىء سوى أنها تفترض تجرد الحياة بل هى تجردها من أوهامها وخيالاتها وما اليهـــا من مظاهر خداعها التى تمسك على الانسان وجوده فى هذه الارض ، وهو الذى كله زيف ، وكله باطل ٠

ونحن اذ نرسم صورة القصة الوجودية القصيرة التى توفرت لها ملامح الشكل الادبى كلها ، فهى وحدة قائمة بذاتها ، متمايزة من غيرها ، اننا اذ نفعل ذلك ، انمـــا نمهد طريق الحديث عن عالم من أعلام القصة الوجودية القصـــيرة ، فرانز كافكا ، وعن عمله فى اطار المذهب الذى آمن به ٠

ولد فرانز كافكا فى مدينـــة براغ حاضرة تشيكوسـلوفاكيا عام ١٨٠٣ م ، حيث اتصلت حياته حتى عام ١٩٢٤ ، ولم يسعده الحظ فيرى فى حياته قصـته الطويلة الكبيرة ترى النور ٠ ومنذ ذلك الوقت أخذت أعماله العظيمة : «القلعة» و «المحاكمة» و «أمريكا» ، وقصصه القصـيرة الكثيرة أخذت تنعم بالانتشار فى أنحاء العالم ٠ والموضوعات التى يعالجها كافكا فى قصصه ، طويلها وقصيرها ، هى القلق المتصل وخيبـة الامل وانعدام الوحدة الكونية ، وجلها موضوعات تلائم عصرا فيه قلق ، خاصا كان أم عاما ، له صفة الوجودية الحقة الاكيدة ٠

بعد هذه الترجمة المقتضبة لحياة فرانز كافكا ، ننتقل الى الـــكلام عن الكيان الكافكى فى اطار المذهب الوجودى ، فى محـاولة صادقة الى بيان مدى العلاقة بين الشخص والمذهب فى ضوء عمله الادبى ٠

فى ظل النظر الوجودى ، يغترب الانسان عن نفسه اغترابا يظل يعمق ويعمق حتى تنعدم شخصيته ، ويشكل هذا حجر الزاوية فى بناء كافكا الفنى ٠

ففى قصته الموسومة « راكب » الجردل ، نراه يخرج لنـــا قصـــة « **سيرياليزية فى ذاتها** » اذ كانت تشدد على التفـاصيل أو التفصيلات ، «وجودية فى طالبها» اذ كانت تقدم لنا عالما أصابه الجمود ، تلعب فيه الارادة الانســـانية دورا صغيرا ، أو هى لا تلعب أى دور على الاطلاق ، وتشير البداية ، بداية القصة ، بمـا تبعث من جـو جليدى ، تشير الى نصيب الفرد الذى قد يهلك لحاجته الى سلعة أساسية • انه يحتاجها ومع ذلك لا يمكنه أن يحصل عليها بالوسائل الطبيعية ، فبالنسبة للراكب ، الذى يمتطى صهوة جردله الذى هو جواده ، يصبح البائع الذى لا سبيل الى بلوغه ، فى صورة من الصور ، الها يرزع الفـحم الذى يحفظ الحياة اذا أمكن صاحبها الوصول اليه •

وفى هذه القصة الغريبة التى لا يكاد يحدث فيها شىء ، والتى يبدو فيها رغم هذا كل شىء له وجود ، فى هذه القصة ، يكشف كافكا القناع عن عالم قاس تمتد فيه أكثر أشياء حظا من طابع العـادية ، الى أشكال جديدة ومعان جديدة •• ومثل شخصيات كافكا الاخرى الكثيرة ، يتحتم على الراكب أن يخضع ارادته لارادة الآخرين ، فبغير قرار بائع الفحم أن يعطيه وقودا لن يبقى حيا • وفى هذا ما فيه من السخف ــ سخف عالم لا يمكن أن يأمل فى فهمه • والسخف يشتد ويعمق أكثر من ذى قبل حين لا يقابل الراكب بائع الفحم اطلاقا • فعلى نحو ما فى مؤلفه المعروف: «القلعة» يعترض طريق الشخص عائق قبل وصوله الى وجهته ، فيحول دون بلوغه غايته ، يجد الراكب ملتمسه تعترض عليه زوجة التاجر ، وهى التى تتابع تبليغ المعلومات الخاطئة الى زوجها ثانية • وهكذا لايتصل الراكب بالشخص الوحيد الذى يمكنه أن يمد له يد المعونة ، وبغير المعرفة والفهم وتحقيق ذاتيته ، يصعد صاحبنا طريقه الى «موت متجمد» ، وقد أغلق على نفسه فى داخلها ، وهو يلعن قسوة الدنيا •

وفى فرانز كافكا يقدم الانسان دائما الى ساحة القضـاء ، فاذا هو مذنب ، يدينه ذنب لا يدريه ، ويلقى جزاءه عقابا لم يقترف جريمة يستحقه من أجلها ، فهو الضحية البريئة لقوة ليس من يخفف غلواءها حياله •

ولا يملك الا أن يندب حظه وينتـحب : « **أنا هنا ، وأكثر من هذا لا أعرف ، وأبعد من هذا لها يمكننى أن أذهب • ان جردلى لا دفة له ، وتسوقه الرياح التى تهب وتسفى فى مناطق الموت • وحتى هذه الصيحة تذهب صرخة فى واد ، واذا كان هناك فحم يحصل البعض عليه ، فان لى البرد والزمهرير** » •

وتذهب بصيرة كافكا أبعد مما تذهب بصيرة ديستيوفسكى من حيث الثبات وعدم التغير • فهى تنكر على الانسان الحرية ، وهى تنكر عليه الذعر من الاختيار ، ثم هى تنكر عليه فى النهاية أن يمكن وجود السلام•

ان «راكب الجردل» يثور على نظام الاشياء ، ولكنه بوصفه متمردا ، اذا به « ضحية أوفق » ففى عالمه ، يستحيل عصـــيان راكب الجردل الى ســـخافة ، حين يقع التعبير عنه على آذان صماء • ان راكب الجردل ، هو فى حقيقته الضحية السخيفة ، أو ضحية السخف ، انه العاصى الفاشل ، « المخبول الكونى » •

والشخصيات فى قصص كافكا بعد الذى ذكرت ، شخصيات تحظى بقدر غير ضئيل من الواقعية ، الا أنها واقعية تقل عن نصيب مثيلاتها منها عند قصاصين وجوديين آخرين مثل سيزار بافيس الايطالى • كمـــا أن المفردات التى هى تفاصيل فى القصة تكثر كثرة لا تخفى على عين تلحظ ، الا أنها تزيد فى جملتها عن نصيب قصص وجوديين آخرين منها ، مثل صمويل بيكيت الايرلندى • والتفاوت فى النصيب تبـــاين فى التناول الفنى ، يشكل على نحو من الانحاء مدى الفرق فى النظر الى الاشياء ، كان هذا النظر فى ظل المذهب الوجودى أو غيره ••

هذا هو فرانز كافكا ، وهذه هى نظرته الوجودية الى الدنيـــا وما يضطرب فيها من بشر ، وما تحفل به من أحداث ، وتزخر به من أوضاع تنتظمها الحياة الانسانية •

وأسلم القـارىء بعد هذا الى قصة « راكب الجردل » التى تناولت الحديث عنهـــا بسبيل التمثيل للقصة الوجودية عند كافكا ، موضوع مقالى •

نفد الفحم جميعه ، الجردل فارغ ، الجاروف لا فائدة منـــه ، الموقد ينفث البرد ، الغرفة تتجمد ، الأوراق خارج النافذة ، متصلبة يغطيها التراب القذر ، الســـماء درع فضى فى وجه كل من يتطلع اليها فى طلب العون منها • انه يتحتم على الحصـــول على فحم ، انى لا يمكننى أن أتجمد حتى الموت •• الى ورائى يقبع الموقد الذى توقف نبضـه بالشفقة ، وأمامى السماء التى لا تنم عن شفقة تضطرب بين جنبيها ، ومن ثم فلا بد أن أخرج راكبا بين الاثنين ، وفى

رحلتى أسعى الى العون من جانب بائع الفحم • ولكنه قد غدا أصما فهو لايسمع الى المناشت العادية • انى لا بد أن أقيم له الدليل فى صورة لا تقبل التفنيد أنى لم يعد فى حوزتى قطعة فحم واحدة ، وأنه أصبح يعنى لى ما تعنيه الشمس ذاتها فى كبد السماء • لا بد لى أن أتقدم اليه مثل شحاذ يصر ، وقد أخذت حشرجة الموت تتردد فى حلقه ، يصر على الموت على عتبة الباب ،والذى يقررها هى الشعب الأعظم على أساس من هذا أن يعطيه ثمالة براد القهوة • على هذا النسق ، لا بد أن يلقى المرء بائع الفحم، وقد امتلأ قلبه (قلب بائع الفحم) حنقا وغيظا ، ولنه يعترف بالوصية : « انك لن تقتل » ، لا بد أن يلقى ملء جاروف من الفحم فى جردلى •

ان طريقة وصولى يجب أن تقرر الأمر ، ومن ثم فأنا أركب جردلىوأنطلق ان يداى وقد استقر بى المقام على الجردل فى هيئة مقعد لى ، تمسك بيده ، أبسط أنواع اللجام ، ثم أنا أدفع نفسى قدما هابطا الدرج ، ولكنى لا أكاد يستقر بى المقام فى أسفل الدار ،حتى يصعد جردلى فى صورة رائعة ، فى صورة رائعة • وان الجمال التى تجلس القرفصاء فى تواضع على الأرض لا تنهض فى هيئة أو فى حظا من الهيبة ، وهى تهز قوامها تحت لفحات عصى حداتها • ونمضى خلال الشوارع التى تجمدت صفحتها ، نخطو خطوا حثيثا منتظما ، وبينما نحن نمضى يرتفع مقامى فى أغلب الأحيان ، فاذا هو يعلو بما يوازى ارتفاع الطابق الأول فى منزل ، وما أغرق أبدا ، فأبلغ درجة من الانخفاض أحاذى عندها أبواب المنازل • وفى النهاية أطفو على ارتفاع غير طبيعى فوق سرداب البائع الذى تغطيه الأقبية ، ذلك البائع الذى أراه أسفل منى الى بعيد يجثم على منضدته ، حيث يمضى فى الكتابة ، وكان قد فتح الباب حتى يجد متنفسا تخرج منه الحرارة الزائدة •

فأصرخ : « أى بائع الفحم ! » وتدوى صرختى فى صوت احترق فغدا أجوف بفعل الجليد ، وخفت فيما أثرت من سحابة نسجت رقعتها أنفاسى • « **من فضلك يا بائع الفحم ، اعطنى قليلا من الفحم ، ان جردلى خفيف الى درجة اننى أستطيع ركوبه • تعطف ، وحين يتيسر لى ، سوف أدفع لك •** »

ويضع بائع الفحم يده الى أذنه : «**هل أسمع حقا ؟** » يلقى بالسؤال عبر كتفه الى زوجته • « أو أسمع حقا ؟ زبون» •

تقول الزوجة : « **انى لا أسمع شيئا** » وأنفاسها تشوقوتزفر وهى تعمل ابرتها فى لفة الخيط التى معها ، وقد تدثر ظهرها بالدفء الجميل الذى تشعه الحرارة •

فأصرخ : «**أوه • نعم يجب أن تسمع انى زبون قديم ، مخلص أمين ، الا أنى أعدم الآن القدرة على الدفع** » •

فيقول بائع الفحم : « **زوجتى • ثمة شخص هناك • لا بد • ان أذناى لايمكن أن تكونا قد خدعتانى الى هذا الحد • لا بد أنه عميل قديم ، قديم جدا ، حتى أنه يستطيع أن يحركنى ، بل يثير عاطفتى الى هذا المدى العميق** » •

فتقول الزوجة : « **ماذا يعنيك أيها الرجل** » ، تقولها وقد توقفت عن العمل لحظة تضغط شغل ابرتها على صدرها ، « **ليس هناك شخص ما ، فالشارع خلا من المارة ، وكل عملائنا**

قد حصلوا على حاجتهم من فحمنا ، انه ليمكن لك أن تغلق الحانوت أياما عديدة، ونستريح شيئا » ٠

فأصرخ : «ولكننى أجلس هنا فى عال فوق جردل » ٠ وتغرورق عيناى بدموع تتجمد فهى لاحظ لها من احساس ٠

فأعاود الكلام : « **من فضلك ، أنظر الى أعلى ، هنا ، مرة واحدة فقط ،فسوف ترانى فى الحال ، آتوسل اليك ٠ ملء جاروف واحد فقط ٠ واذا أعطينى أكثر فانك سوف تسعدنى الى درجة أنى لن أعرف ٠ ماذا أفعل ٠ ان كل الزبائن الآخرين قد نالوا قسطهم من زادك ، أوه لو أنى استطعت سماع الفحم تخبط قطعة واحدة منه الأخرى داخل الجردل ! »** ٠

يقول بائع الفحم : « **انى قادم ! » ويأخذ يتسلق على رجليه القصيرتين** درجات السرداب ، الا أن زوجته قد وقفت من قبل الى جانبه ، فاذا هى ترده الى وراء بذراعها وهى تقول : « عليك أن تبقى هنا ٠ واذا وجدتك تصر على أوهامك وأخيلتك ، فسأذهب بنفسى ٠ اذكر نوبة السعال السيئة التى لعبت بك الليل طوله ٠ ولكن من أجل قطعة من العمل ، حتى ولو كانت عملية تخيلتها فى رأسك ، أراك مستعدا أن تنسى زوجتك وأطفالك وتضحى برئتيك ٠ سأذهب أنا » ٠

ـ «اذن ، فتأكدى أن تخبريه بجميع أنواع الفحم التى لدينا خزين منها ، وسوف أرفع عقيدتى معلنا الأسعار فى أثرك » ٠

فتقول الزوجة : « **حسنا** » ، وتعتلى الدرج الى الشارع ٠ وطبيعى أن ترانى على الفور ٠ فأصرخ : « أى زوجة بائع الفحم ، تحياتى المتواضعة ٠ ملء جاروف واحد من الفحم ٠ هنا فى جردلى وسأحمله الى البيت بنفسى ، ملء جاروف واحد من أسوأ أنواع الفحم لديكم ، وسأدفع القيمة كلها طبعا ، الا أنى لن أفعل الآن للتو ٠ » كم كان لهذه العبارة « ليس على الفور » من وقع مثل صوت دقات الناقوس يعلن وفاة راحل عن الدنيا ، وكم بدت العبارة محيرة وقد أخذت تختلط مع أنغام المساء الصادرة من برج الكنيسة التى تقوم قريبا من المكان !

يصيح البائع : « حسنا ، ماذا يريد ؟ » فترد زوجته عليه الصيحة قائلة : «**لاشىء**» ، وتمضى بعدها فتقول: « **لا شىء هنا ، انى لا أرى شيئا ٠ انى لا أسمع شيئا ٠ وانما تدق الساعة السادسة ٠ ويجب أن تغلق الحانوت ٠ ان البرد يثير الذعر فى الأنفوس ،وسوف يكون لدينا الكثير نعمله فى الغد ثانية**»٠

انها لا ترى شيئا ، ولا تسمع شيئا ، ولكنها سواء ترخى خيوط مرولتها وتلوح بها تبعد عن المكان ٠ وتنجح لسوء الحظ ٠ فان جردلى له فضائل الجواد الطيب كلها الا القدرة على المقاومة، فهذه لا تتوفر له ٠ انه خفيف للغاية ٠ ان ميدعة امرأة تستطيع أن تدفعه طائرا فى الهواء ٠

فأصيح فى وجهها : « **أيتها المرأة الخبيثة !** » ، بينما تلوح هى ، وقد استدارت تدخل سردابها يتوزعها الشعور بالازدراء والطمأنينة ، تلوح بميدعتها فى الهواء ٠ «أيتها المرأة الخبيثة! **لقد رجوت ملء جاروف من أسوأ أنواع الفحم ، وأبيتيه على** » ٠ وبهذه الصيحة اتخذ طريقى صعدا الى مناطق الجبال الجليدية ، وأفقد حياتى الى الأبد ٠